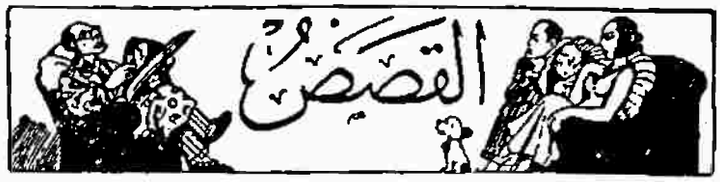

يوميات جينيفييف

للكاتب الفرنسي مارسيل بريفو

بقلم الدكتور محمد غلاب

١ — الأسوداد :

٢٠ مايو

لماذا أنا مهتاجة ومحزونة ؟ لماذا قلبي مفعم باسوداد بشع كما كانت تقول الأم « ملكة [1] اللائكة » في ذلك الوقت السعيد الذي لم أكن مشغولة فيه إلا بشواغل فتيات الدير ، والذي لم أكن فيه متزوجة، ولا ... ماذا كنت سأكتب؟ إن كل مسروري اليوم ينحصر في أني أم . كل سروري اليوم هو عزيزي الذي يبلغ من العمر تسعة عشر شهراً ، إنه هو « ريفيهي » الصغير .

إن الأم « ملكة اللائكة » كانت قد وضعت هذا الاسم أي (الاسوداد) لتنعت به الأشياء المتموجة الثقيلة المظلمة التي تضغط على القلب دون أن يعرف أحد من جاءت ، ولا ما هي ، ولكنها كانت أيضاً قد ابتدعت برنامجاً لمحاربة هذا الاسوداد وهو أن يعتزل الإنسان الناس ويأوي منفرداً إلى غرفته ، وفي يده قلم وورقة بيضاء ، وأن ينظر بعناية في أعماق نفسه ، فبفضل إدمان هذا الامتحان يصل الإنسان دائما إلى اكتشاف ذلك الاسوداد مختبئاً في زاوية من زوايا قلبه . ومعنى هذا أن جميع الأسباب الغامضة التي عنها ينشأ الحزن ستنتهي بأن تتكشف يوما ما ، إذ كلما يلمح

(١) هو اسم لمديرة الدير الذي تربت فيه السيدة « جينيفييف » بين مثيلاتها من بنات الأشراف .

الفترة من فرض الحماية البريطانية ، وإعلان الأحكام العرفية ، والرقابة الصحفية ، ووقف الجمعية التشريعية ، واضطهاد الحركة الوطنية ، وتشتيت شمل رجال الحزب الوطني الذين كانوا يقومون وحدهم حينئذ بهذه الحركة ، وذلك بالاعتقال والنفي ، وعدد ما استولت عليه السلطة الإنجليزية من مؤن ورجال ودواب وما إلى ذلك مما يطول القول فيه . وفي الفصل الثاني استقصى كل الأسباب التي بعثت على الثورة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، ورجع بها إلى سنين خلت . وبعد أن فصل القول في ذلك تفصيلا قال : إن تأليف الوفد المصري قد جاء معجلا لظهور هذه الثورة ، ذلك بأن أعضاءه لما لم يذعنوا للانذار البريطاني الذي يقضي بألا يجعلوا الحماية موضع مفاوضة ، وألا يعرقلوا تأليف وزارة تخلف وزارة رشدي باشا ألقى القبض عليهم واعتقلوا « فكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى التي أشعلت نار الثورة » .

ثم مضى بعد ذلك يتحدث عن هذه الثورة التي شملت البلاد جميعاً مدنها وقراها ، وعمت أهلها أفرادها وجماعاتها ، وأسند حديثه بإحصاء دقيق لكل ما حاق بالبلاد من الفظائع التي اتخذها الإنجليز لقمعها ، وشرح المحاكمات التي قضت بالقتل على المئين ممن اشتركوا فيها . ثم أنشأ يتكلم عن لجنة ملنر وما قوبلت به من إعراض الأمة عنها ومقاطعتها إياها ، ثم اضطرارها إلى مفاوضة الوفد المصري الذي كانت تتجاهله ولا تعترف به ، وأفاض في القول عن مراحل هذه المفاوضة واستشارة الأمة في المشروع الذي انتهت إليه ، ثم ما جرى بعد ذلك فيها إلى أن انتهى أمرها.

وعقد الفصل الأخير للكلام عما أدت إليه هذه الثورة وهل نجحت ؟ وفيم كان نجاحها ؟ وهو فصل ممتع يمتد بنا نفس القول لو عرضنا لتلخيص ما اشتمل عليه من تحليل عميق واستنباط سديد . ثم ختم الكتاب بوثائق قيمة منها عهود الإنجليز باحترام استقلال مصر ووعودها بالجلاء ، وقد بلغت ستين عهداً ووعداً ، ومنها معاهدة الآستانة المؤرخة ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ .

هذا عرض موجز ألممنا فيه بأطراف مما جاء في كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » . ولو كان الأمر لنا لأشبعنا القول في كل فصوله القيمة ، ولكن صفحات الرسالة الغراء تحول الآن بيننا وبين ما نريد . ولعلنا — بهذه الكلمة الصغيرة — نكون قد أدينا بعض ما يجب علينا من تنويه وتقدير لمؤرخ العصر الحديث الذي قضى من عمره المبارك ما قضى في خدمة بلاده عملا وتأليفاً ، وكان من أقطاب هذه الثورة ، وممن وقع عليهم من المحتلين قبل شبوبها عنت الجور والإرهاق وظلم السجن والاعتقال . سدد الله خطاه ، ووفقه في كل ما يتولاه.

محمود أبو رية

الإنسان سبباً من هذه الأسباب يقيده فى تلك الورقة بقدر ما يتيسر له من إيضاح ونظام : فإذا ما تمت كتابة هذه النقط وجب على ذلك المحزون أن يتأمل فيها جميعها فى شىء من التفصيل . ولقد كنا نفعل ذلك كلما ألم بنا الحزن ، وكنا نجتهد دائما فى أن نجد الدواء لكل اسوداد ، وإلا فقد كنا نوطن النفس على الاحتمال ، وكانت هذه العملية دائما تنجح فى إعادة الهدوء والتفاؤل إلى النفوس .

واحر قلباه ! إنى بقدر ما أخطو فى الحياة المستقلة التى يدعوها بالحياة الزوجية ألمح أن هذه الحياة عابثة ومليئة بالضعف والبؤس ، وليس لهذا من سبب إلا أننى لم أعد أتمسك بتلك الالتزامات الحكيمة التى تلقيتها فى الدير ، ولو أن مثيلاتى من السيدات (الأريستقراطيات) استطعن أن ينقلن تلك النصائح النفيسة إلى حياتهن الاجتماعية والزوجية لخلقن من أنفسهن نساء قويات .

ولكن الوقت لم يضع لمن أراد أن يعمل خيراً كما يقول المثل . فلنحاول تجربة دواء الأم « ماكنة الملائكة » ولأطبقه على حالتى الخاصة .

أنا « جينيفييف أوليفيه » تلميـــذة الدير سابقاً ، و« الكونتيس دى بواستيل » اليوم والتى تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما وقد مضى على زواجها ثلاثة أعوام ، وهى متمتعة الآن بحب طفل تعبده ، وبزوج خبيث وفاتن تعبده أيضاً مع الأسف الشديد .

ها هى ذى الورقة البيضاء أمامى ، وها أنذى أمسك بقلمى وأجلس إلى مكتبى

إن الطفل الآن نائم ، وإن مربيته الانجليزية بجانبه ، وإن « راءول » زوجى فى النادى (فى الساعة الثالثة بعد الظهر وفى يوم الأحد ... ! وعلى كل حال فلنصدق ذلك مؤقتا) ولكن الذى لا شك فيه هو أنه لن يعكر على صفوى أحد قبل مضى ساعتين ، فلنبتدىء :

أنواع الاسوداد التى فى نفسى الآن :

(أ) إن هذا اليوم هو يوم الأحد ، وهو عندى يوم حزين ولا سيما فى الساعات التى تفصل بين الغداء والعشاء ، وفوق ذلك فإن الطقس حار جداً ، وأنا حينما تشتد الحرارة أحس كأنى لا أحيا فى الوجود .

(ب) إن بشفة طفلى دملا صغيراً ؛ وعلى العموم إن هذا الطفل يقلقنى منذ أسبوع لأننى الاحظ أنه ممتقع قليلا ، ودرجة الحرارة عنده تتخطى الحد الطبيعى ، ومربيته تقول : إنه لا ينام نوماً هادئاً .

(ج) إن « وايت فيرن » لم يفلح فى صنع ملابس السفر التى كان يخيطها لى بالرغم من محاولاته المتكررة ، وبعد عشر تجارب معها اليوم إلى قبل أن أستيقظ من نومى ، ولا شك أنه فعل ذلك متعمداً لكى لا أجربها فألاحظ أخطاءها الجديدة وأعيدها مع العامل . وإننى فى هذه الملابس مرعبة ومضحكة ، فعندما ألبسها أظهر كأننى أمثل دور سائق العربة فى إحدى روايات « البولفار الهزلية » . ولا ريب أن هذا أمر سخيف لأن رحيلى إلى « تالوار » سيؤجل .

(د) وأخيراً ؛ إن الإسوداد الحقيقى الذى يملأ نفسى ، والذى هو جدير بأن يعد كنتيجة للتفكير الطويل هو أننى غيورة ، وغيورة بصورة مزعجة . ولكنها ليست غيرة غبية حمقاء بلا مبرر إلا التلذذ بعذابى وعذاب زوجى . كلا بل إن لدى أسباباً قوية ومبررات قيمة لهذه الغيرة .

فقبل كل شىء لم يعد « راءول » يحبنى ، ومع ذلك فلو أنى مت لسبب له موتى حزناً . غير أنى أعتقد أن عاطفته نحوى تقف عند هذا الحد ، إذ أن من الواضح أنى أضايقه ، وأنه يتمنى أن يكون حيث لا أكون (أنا أجرح قلبى بيدى عندما أكتب هذه الكلمات ، ولكن الطريقة محددة ، وهى أن من أراد أن يكتنه الاسوداد الذى فى نفسه ، فعليه أن يكون صريحاً ومخلصاً إلى حد القسوة) . من فظائع الأمور ألا تروق المرأة زوجها ، ولكن ليس هذا كل شىء ، فراءول يروقه شىء آخر فى الخارج

أوه ! أنا لا أدرى بالضبط من هى تلك التى سلبتنيه ، ولا أدرى كذلك إلى أى حد انتزع منى ... آه لو كنت أدرى ! غير أن الذى لا شك فيه هو أنه مستلب الآن منى ! إن شكوكى تتردد بين آنسة وسيدة شابة ! آنسة ؟ هل يمكن أن تدعى واحدة من هذا النوع « بآنسة » ؟ تلك الكلمة نفسها التى كانت تطلق علينا ونحن فى الدير ، تطلق علينا نحن الطاهرات البريئات الحبيبات المحفوظات من كل دنس ! أما تلك الفتاة فهى الآنسة «لوس دى جيفيرنى» ، وهى واحدة من هاتيك الشابات

الباريسيات اللواتى أفرطن فى الحياة الاجتماعية إلى حد الابتذال ، واللواتى نقلن إلينا العادات الأمريكية بعد أن جردنها من الكرامة واحترام الذات ، لأن الأمريكيات - وإن بدا عليهن المجون والخلاعة — يعرفن كيف يدافعن عن أنفسهن عند الإحساس بالخطر ! إن الآنسة « لوس دى جيفيرنى » تخرج للنزهة فى المركبة وحدها ، وأحياناً يصادفها بعض الناس فى معرض رسام مع شاب يشرح لها اللوحات ، وما دامت مركبة والدتها الفخمة تنتظرها على باب المعرض ، فهذا يكفيها كشهادة بحسن سلوكها. وفى المرقص تختار راقصاً على ذوقها ، وبعد الرقص تختلى وإياه فى زاوية بعيدة عن أعين النظارة ثم تحتفظ به طول السهرة. وفى حفلة أسرة « أفرزاك » أمس الأول كان زوجى هو الذى وقع عليه الاختيار... ومع ذلك فقد كان هذا الزوج دهشاً حينما اعترتنى النوبة العصبية فى المركبة ونحن عائدان إلى المنزل .

وكما أن الآنسة « دى جيفرنى » توجد كسحابة فى أفق حياتى كذلك تلوح من خلال هذا الأفق سحابة أخرى ، وهى « مدام ديلافو » زوجة الرسام ، وهى سحابة صغيرة ، شقراء بيضاء مشربة بحمرة كأنها وردة . إنها لجميلة ، بل قد تخطت حد الجمال

لماذا نستقبل فى طبقتنا أشخاصاً ليسوا منا فى شىء كديلافو وزوجته وأمثالهما الذين كانوا قبل أن نرفعهم إلى سفنا يتناولون طعامهم فى حوانيت الجبن والزبدة ، ويرقصون فى المراقص العامة ، ويعملون كصناع فى معارض الرسامين . من أين جاء هذا الرجل بزوجته هذه ؟ يخيل إلى أنه طالما اتخذها نموذجاً لصوره زمناً طويلا قبل أن يتزوج بها ، وأن حياتهما معاً سبقت عهد زواجهما بوقت غير قصير . غير أنهما قد استقبلا فى عالمنا الأريستقراطى ، لأن الزوج موهوب وحاضر النكتة ، وقد أصبح ثريا ، ولأن الزوجة جميلة إلى حد أنها تستطيع — بلمسة أو بإيماءة — أن تسحر الرجال فتحولهم إلى حيوانات . إنها أغرت زوجى وليس هذا بغريب ، فكل النساء يحاولن إغراءه . أيها الإله ! لقد كنت أتمنى أن يكون زوجى أقل فتنة منه الآن ، ولو كان كذلك لكان حبى إياه مساويا لحبى الحاضر ، ولكانت محاولة سلبه منى أقل مما أعانيه الآن .

ظلت إذاً مدام دى لافو نحو خمسة عشر يوما تحاول إغراء زوجى كما تفعل معه النساء الأخريات ، وقد كان « راءول » أثناء هذه الأيام يظهر عليه الافتتان والسرور ، ولكنهما لم يلبثا أن غيرا خطتهما فلم يعودا يتحدثان مما كان القطيعة قد تمت بينهما ؛ أما أنا فحين رأيت هذه القطيعة الظاهرية كنت أشبه شىء بالحيوان غباوة وبلادة ، وأخذت أحس بالسرور وأقول فى نفسى : أية سعادة ! إنهما لم يتحابا قط ، وإننى كنت مخدوعة فى هذه الريبة .

غير أن والدتى التى كانت دائما بعيدة النظر وكانت هى التى تنبئنى قبل كل إنسان بما يفعل راءول معى من شر ، وتفهمنى متى ينبغى أن أغضب ، قالت لى : احترسى ، إنهما لم يعودا يتضاحكان أمام الناس كما كانا يفعلان قبل الآن ، ومعنى هذا أنهما يستعيضان عن ذلك فى مكان آخر فراقبى زوجك .

وعلى أثر هذه النصيحة ألقيت على والدتى هذا السؤال :

— إذاً فليس هذا الإغراء متجهاً إلى الآنسة جيفيرنى ... ؟

— واحترسى أيضاً من جيفيرنى .

ونتيجة هذا كله أننى أتألم ألماً مزعجاً !

هذه هى مجموعة الإسوداد التى تحتل نفسى ، وإننى لا ألمح غيرها ، فالأمر يتعلق الآن بمناقشة هذه النقط وبمحوها إذا كان ذلك مستطاعا . وسوف لا أقف طويلا عند النقطة الأولى ، فيوم الأحد وحرارة الطقس ، هاتان ظاهرتان يمكن إسنادهما إلى القدر ، والتخلص منهما سهل . فأما الحرارة فإنى أستطيع أن أتقيها بالأمر بإغلاق النوافذ المعرضة للشمس ، وأما بقية نهار الأحد فإنى أستطيع أن أقضيها فى الكنيسة بالاستماع إلى الأناشيد الدينية ، وفى هذا خير شاغل للوقت ومنس للضجر .

أما النقطة الثانية أو الاسوداد الثانى وهو توعك الطفل فإن الدكتور « أرنو » أعلن أنه لا يوجد لديه ما يخيف ، ومع ذلك فلما كان وباء الجدرى منتشراً فى المدينة فقد اعتزمت أن أكتب إلى الدكتور ... « روبان » الذى لى فيه كبير الثقة لأرجوه أن يجىء غداً لفحصه .

أما الإسوداد الثالث — وهو الملابس التى فسدت — فسأتخلص منها بردها إلى « وايت فيرن » وسأنبئه بأننى لن أحتفظ بها ، وإننى مستعدة لقبول الشروع فى غيرها ، وفى مدى خمسة أيام ستكون الأخرى قد أعدت ، وبناء على ذلك فلن يتأخر سفرى إلى تالوار مطلقا . وبعد هذا كله لم يبق إلا الإسوداد الأساسى ، وهو : زوجى أو « راءول » الحبيث .

أيتها الأم الحيرة « ملكة اللائكة » الهمينى فى هذا الموقف أن أكون زوجة متعقلة ومتدينة . أنت تفهمين تماما أننى لا أستطيع أن أقبل بسرور أن أكون مهجورة من أجل امرأة كمدام ديلافو أو فتاة كالآنسة « جيفيرنى » ولا سيما أنى لا أجد فى نفسى ما أستحق عليه التأنيب ، إذ أننى أحب « راءول » ولا أفكر إلا فيه ، وفوق ذلك فأنا لست دميمة ، بل إنى أؤكد لك أيتها الأم أن كثيرا من الشبان قد حاولوا إغرائى منذ اندمجت فى المجتمع فلم يفلح واحد منهم فى ذلك مطلقا ، فهل من العدالة أنه بقدر ما يحس أننى ملكة يمن فى ألا يكترث بى ؟ . وهل ينبغى إذاً ألا أشعره بحنانى نحوه ، وأن ألهب غيرته على نحو ما هو مألوف فى الهازل التمثيلية ؟ كم هذا يقززنى ! كلا ، كلا . أنا لن أقف نفسى — ولو فى الظاهر — موقف المرأة الساقطة ، لكى أجتذب حب زوجى . غاية ما فى الأمر أنا أعتقد أن من الحكمة أن أراقب قلبى وأن أفهم « راءول » حزنى ، ولكن لا بوساطة الدموع ، بل عن طريق السكوت وتجنب مظاهر المودة . ولا ريب أن هذا سيكلفنى كثيرا ، وسيكون شاقا على نفسى ، ومع ذلك فهو الذى ينبغى عمله . سأعامل زوجى منذ اليوم بفتور وبخضوع فحسب . والآن ، ماذا أستطيع أن أعمل ضد عدوتى اللدودتين : الآنسة « دى جيفيرنى » و « مدام ديلافو » ؟ . أنا لا أريد أن أمثل معهما رواية عامة طبعا ، وفوق ذلك ، فإن « راءول » — على الرغم من صلته الشائكة بهاتين المخلوقتين — لا يزال زوجا مهذبا ، لا يؤخذ عليه شىء فى كل ما يتصل بى . ولو أننى أردت أن أمثل منظرا عاما من هذه الرواية لما مكننى من فرصة تمثيله . وإذاً ، فلم يبق لى إلا أن احتمل ؛ ولكن كلا ، فأنا لا أستطيع ذلك الاحتمال لأنى لست بطلة إلى الحد الذى أقبل معه أن يخدعنى زوجى . ولست أحسب أن الإله يكافئنى ذلك ، فإن لى الحق فى أمانة زوجى ، فإذا لم تتحقق لى هذه الأمانة فإننى أفضل أن أحيا وحيدة مع طفلى العزيز الذى قد يعزينى عما أقاسيه .

ها أنذى قد صممت على أن أعرف الحقيقة ، فإذا كانت شديدة القسوة فإننى سأرجو من والدتى أن تصحبنى وطفلى إلى ممتلكاتنا فى الريف لنعيش معاً هناك ، ولكن كيف أعرف هذه الحقيقة ؟

لقد تسلمت منذ أيام كتابا واردا باسمى فقضضته أمام زوجى و لم أكن أعرف ماذا يحتويه فإذا به آت من مكتب البوليس الخاص يعرض على أن يراقب زوجى إذا أردت ذلك ليرى أله صلة خفية باحدى السيدات أم لا ؟ وبعد أن قرأت هذه الرسالة ناولت زوجى إياها فألقى عليها نظرة متقززة ، ثم دعكها وقذف بها إلى الأرض ؛ ولقد كان مخطئا فى هذا الغضب ، لأنى لن ألجأ أبدا إلى مثل هذه الطريقة ؛ ولكنى سأراقبه بنفسى كما يراقب القائد الجندى المتهم بأن نفسه تحدثه بالتفريط فى واجبه العسكرى . نعم إنه ليس لديه ما يخشاه منى من حيث فض رسائله أو تفتيش أدراج مكتبه ، ولكن مادام للمرأة أن تتبع زوجها فى أى مكان ، وما دام ليس للرجل أن يذهب إلى أى موضع دون أن يصطحب زوجته فليحذر هذه النتيجة ، إذ قد يذهب يوما من الأيام ملبيا أحد مواعيده ، سعيدا باحدى تلك المسرات الرديئة التى أقرؤها فى عينيه أو فى صوته ، أو فى حركاته ، فإذا وصل إلى مكان هذا الموعد ألفانى هناك ووقف أمامى وجها لوجه .

ها هى ذى نهاية تفكيرى ، وهى لم تعزنى ، ولكنها هدأتنى قليلا ، وسأغادر اللحظة مكتبى لأنظر هنيهة من نافذة غرفتى المطلة على الطنف ، لأننى أريد أن أتنسم هواء المساء الرطيب ؛ فلقد فكرت طويلا والآن قد احتجبت الشمس خلف أشجار الكافور التى تنتصب فى حديقة المنزل كأنها سور عظيم . وعندما تختفى الشمس من الحديقة يسود جوها هواء فاتر لذيذ . إن الطقس الآن بديع وإن هذه الحديقة وذلك المنزل من المنوادر التى يحسد عليها فى وسط باريس . كم لدى من الأسباب الظاهرية ما يجعلنى أتذوق الحياة وأسعد بها : أسرة عطوفة ، وزوج رشيق ، وطفل محبوب وفوق ذلك فجميع رغباتى محققة . آه ! لو أن العينين الزرقاوين[1] والعينين السوداوين لم تكن موجودة لكنت أعبد الحياة !

أنا لست شريرة ، ولكنى لو أننى كنت أستطيع أن أطفىء نور هذه الأعين الأربع بهدوء دون أن أولم صاحبتيها ، ودون أن أحزن الذين يحبونهما ، وأقصد طبعا الذين لهم الحق فى حبهما لفعلت

(يتبع)

محمد غلاب

(١) تقصد بذلك أعين عشيقى زوجها .